تشكّلات النّص الأسطوري في قصص "جنّية البحر" لجميلة زنير

Legendary text formations in stories "jeniyat el bahr" for djamila zenir

د. سماح بن خروف

قسم اللّغة والأدب العربي
جامعة محمد البشير الإبراهيمي- برج بوعريريج (الجزائر)

samsouma.abla@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/04/04 تاريخ القبول: 2020/04/18

ملخص :

إنّ ما يشجّع كاتب القصّة القصيرة على الغرْف من الأساطير العريقة هو ما تحتويه من خصائص الحكي كالعقدة والأحداث، وبعض الخصائص السّردية التي جعلتها أكثر التصاقا بالفنون النّثرية السّردية، ومثلما سطّرت الأساطير في القرون الأولى، وأضْحت نصوصا مقدّسة بات لزاما على الفنون الأدبية حاضرا ومستقبلا أن تحفظ هذا التّراث الثّري مادامت تكتب عن الإنسان للإنسان، فإنّ كلّ المتعلقات المحيطة به تستلزم أن تتجسّد، وتحيط بأطوار التّاريخ بمصاغ قصصي مزوّد بحقائق وطقوس وظواهر طبيعية تستدعي التأمّل والتّفسير.

الكلمات المفتاحية: التشكّلات، الأسطورة،القصة، القصة القصيرة، الشّخصية الأسطورية.

Abstract:

What encourages the short story writer on tacking Of ancient legends It is the contents of the storytelling like knots and events, and some Narrative characteristics Which made it more closely related to narrative prose arts, Just as legends were written in the early centuries, It became sacred texts It is imperative for the present and future literary arts to preserve this rich heritage As long as you write about man to man, All the things surrounding him must be embodied, It is surrounded by phases

of history with anecdotal writings Provided with facts, rituals and natural phenomena that call for reflection and interpretation.

key words: : **Myth,story, short story, mythical character**

مقدمة:

لمّا كان الإنسان في صراع مع الطبيعة كان له أن يخرج إلى ما يغايرها أو ما فوقها؛ حتى ينفلت من مفارقاتها لا للغرق في الغامض والمبهم، وإنّما لإيجاد بدائل تغني عن كدّ الذهن، ومعاناة النفس مع صفحات مجهولة في كتاب القدر والحياة. وقد شاع بأنّها حكايات محفوفة بالمبالغات لدرجة اعتبارها من الأباطيل التي لا طائل منها إلاّ أنها مادّة واسعة وعريقة تُدرج ضمن باب التّراث اشتملت على أحداث وانفعالات ناجمة عن وعي جمعي كائن آنذاك، أو عن لا شعور قائم على مجموع الخبايا أو التّراكمات ذات البعد الاستشرافي، التي تتناقلها الأجيال مصدّقة ومحلّلة فهي "**محلّ عمل دائب لا يتوقف، فهي حفريّة حيّة ورغم كونها تأكل بعضها بعضا، وتتناسخ، وتتكرّر، إلاّ أن لها تاريخا حيّا يمكن قراءته في تفاصيلها التكوينية** ". [1]

وقد يكون الباعث إلى استنطاق الماضي المغيّب في التّراث أو الأساطير هو الضرورة الإبداعية، فالخيال يضيف إلى مصداقية الأحداث بعدا فنّيا يحاكي الجانب الحيّ بحكي يعتمد تداخلا نصيا وآخر لغويا يحيل إلى أبرز المرجعيات، عبر الإيحائية أو التلميح، أو الاستشهاد لذلك يتكئ الأديب إلى النّظام الميثولوجي؛ لاستجماع أكبر قدر من الموروث القديم واستكشاف المجاهيل المفعمة بالغرابة " **فالأسطورة مصدر أفكار الأوّلين، إنها الدين والتاريخ والفلسفة جميعا عند القدماء**"[2] ولعل المنهج الأسطوري كفيل بتقديم معطيات تفسّر علاقة الإنسان بالموجودات، ومدى تحدّيه لقوى الكون الظاهرة والخفيّة، أو إبرازه لقدراته الفاعلة.

أوّلا/ الأسطورة والأدب: الاستدعاء والتأويل

وقد لا يكتفي المستلهم من النّصوص الأسطورية القديمة بما تبوح به هذه المادّة في ظاهرها بل هو مطالب بالغوْر في مكامنها واستثمار أبعادها فحينئذٍ "**يتناول الأديب ملامح الشخصيات الأسطورية ويحاول تفسير ما لها من دلالات خفية أو ابتكار دلالات لها تتلاءم مع هذه الملامح**" [3] وليست بالمهمّة الهيّنة عليه، لذا يجب أن يتمعنّ بنظرة واعية بدقائق الحكاية الأسطورية وفهم أطرها الخارجية؛ لكي لا تنشطر في عمله الجديد أو تغدو حشوا لا طائل منه فعليه أن يعمل على إنتاج متخيّل قابل للاحتذاء، والدّراسة تماشيا مع المقتضيات الراهنة.

رغم اللاّمعقولية التي نجدها حاضرة بقوة في الأساطير إلا أنّها تعبّر عن نظرة الإنسان البسيط للكون، وما هي إلا استجابة لفضول دائم ومتجدّد، يسعى إلى إعطاء العديد من التبريرات لعجائب الكون أو حتى العواطف والمشاعر الكامنة ومن جملة ما نقل الفينيقيون العرب " **أساطير خلق الكون وخلق آدم والشجرة والمعصية وطوفان نوح، وهي ذات الموضوعات الموجودة في أساطير سومر وأوغريت**" [4] ولعلّ الغاية من توظيف القصّة القصيرة للأسطورة هي إضفاء تكثيف واضح لمجموع الأحداث المكثّفة داخل المتن القصصي.

ولكن تشعّب النّصوص الأسطورية يقتضي قراءات عميقة جدا نظرا فالبعض يرى بأن " **الأسطورة لا تكتمل ولا تناقش في الوقت نفسه، لا الزّمن ولا المعرفة من شأنهما إضافة أي شيء إليها، ولا ينتزعان منها شيئا**"[5] ولكن هذا النصّ الأسطوري المقدّس فقط هو الذي لا يقبل أي تحوير أو بتر يمسّ به من قريب أو من بعيد، ولكن رولان بارت أشار إلى نماذج أسطورية مغايرة تماما للمعتقد السّائد، تجاوز " ديزونيوس، وفينوس، وإيزيس، وعشتار، وسميراميس وتمّوز وغيرها...وحتى الفرد البسيط بإمكانه أن يقوم بأعمال بطولية تخلّد اسمه في تاريخ البشرية فيستحق لقب البطل الأسطوري، أو حتى العلاقة العاطفية التي تصل إلى المثالية بين الرّجل والمرأة تنعت بالحب الأسطوري.

والأسطورية ليست حكرا على زمن دون آخر أو آلهة أو أنصاف الآلهة بقدر ما تنسحب على الشّخصيات العادية بفكرها وأهوائها المختلفة، و قد أبدعت القصّة القصيرة الجزائرية في تحويل شخصيات عادية إلى شخصيات تاريخية أسطورية، بل وتوغلت إلى ما يعرف بأسطرة الأحداث لأنّ الأسطورة " **نظام وكتل متجانسة وديناميكية تتطور وفق ضرورات ومقاييس خاصة...والأديب لا يمكنه تغيير الأساطير الموروثة، ومع ذلك عليه أن يثبت براعته في الإبداع**"[6] ومن خلال استكشاف التّداخل النّصي مع الأسطورة في القصص القصيرة المختارة سنتساءل عن مدى تغلغل الأساطير داخل الخطابات القصصيّة، واندماج مادة الأديان والمعتقدات وانبعاثها من جديد دلاليا وفنّيا، فهناك من يعتبر أن التّاريخ الأسطوري قد سجّل نصوصا وأعمالا أدبية كانت وليدة الأدب بالدّرجة الأولى مثل " **تريستان، وإيزو، فاوست، ودون جوان**" [7]

وقد يستغرب البعض كيف أنّ أسطورة الإنسان البدائي البسيط الذي يسعى إلى تفعيل كينونته في حقبة زمنية معيّنة تفتقر إلى الوسيلة ويسر العيش، لها أن تندمج مع

فنّية الأجناس الأدبية التي تعبّر عن الحياة بأسلوب جميل، وخيال يستعين بالحقيقة والمجاز، في حين أن الأسطورة بما هي سجلّ بارز لمنعطفات تاريخية ووقائع ثقافية عريقة، قد تكتفي باللّغة السّطحية والواضحة في بعض الكتابات تارة؛ أو قد تلجأ إلى الغموض واللبّس في بحثها عن أصل الأشياء والاستفسار عن حقيقة الإنسان، لتؤثر في المروي له **"فهي تروي حكاية قديمة، وهي بكم ارتباطها بالماضي، ومن تحصيل الحاصل أن تتّسم بالطّابع التّاريخي"** [8].

ولعلّ الحاجة إلى إضفاء نوع من الغرابة على الأعمال الأدبية هي التي تدفع الأدباء إلى استدعاء التّراث الأسطوري مع مزجها بالخصائص الواقعية، فيكيّف القصّ الأسطوري مع الواقعي المصرّح بأحداثه المستلهمة من يوميات الواقع المعيش، ويحفظ بذلك المتخيل داخل الخطاب القصصي التراث من الضّياع، عبر تقادم الزمان وتباين الأجيال في ظلّ إهمال القراءة في معظمها للأساطير الخالدة والمغمورة، بحجة استعصائها وارتباطها بالعرافة والسّحر، والطقوس، والمكامن الطّبيعية أو حتى الطّبيعة الإنسانية المعقّدة.

بالإضافة إلى منحها صيغا حضاريّة جديدة إذ إنه **"لا ثبات في المفاهيم الأسطورية، لأنها قد تنضب وتتحلّل وتتلاشى نهائيا، ولأنّ المفاهيم تاريخية فإن التاريخ قادر بسهولة على إلغائها"**[9] وفعل الإلغاء تستلزمه المتطلّبات التي من شأنها أتحافظ على النمو الفكري للمفكّر قبل الإنسان العادي، فالحكايات الخرافيّة التي تزخر بها بعض الأساطير، والقائمة على أفعال الآلهة وتأليه البشر، تعتبر شحنات تتعدّى المغزى الأخلاقي والهدف التّوجيهي أو حتى الفنّي إلى تعطيل العقل الذي سيجد صعوبة في تفسير الجوانب الرّوحية والمتعلقات الأخروية التي تفسِّر الكائنات العلوية والقوى الخارجية.

وللتآريخ الحق في أن يقف معترضا أمام الفكر الخرافي الذي **"ينزع إلى تعطيل العقل، وبالتالي دور التاريخ، وهما العنصران المميّزان حتى للخرافة بما هي خرافة "**[10] فالمعيار الذي يتوسّله التّاريخ في التّمييز بين الأسطورة والخرافة هو مدى واقعية الأحداث، وحقيقتها بالاستناد إلى أدلّة واقعية، وهذا لا يعني إهمال الخرافة وعدم الاعتراف بها بل على العكس فلها كلّ الفضل في توجيه النّاس، وتقويم سلوكهم لما تحمله من أخلاقيات تلامس حياة البشر فالحقيقة تستدعي الخرافة، وتستغل طاقتها وتمدّها بمواقف لها أن تعمّق من حالات الشّخصيات الشعورية، أو تدفع الأحداث عبر

العلاقات التّناصية إلى الخروج عن سلطة السّرد الواقعي إلى سرد غنيّ بالدّلالات الجديدة تجمع بين سحر الأسطورة وصرامة الواقع.

وقد تجد المادّة الأسطورية المجال الخصب في الأدب وفي القصة القصيرة تحديدا حيث تنمو" **بعض العناصر أو الرّموز الأسطورية في بعض القصص النموذجية عن طريق الأدب وغيه من الوسائل الأخرى**"[11] وبما أن القصّة القصيرة الجزائرية تهتم بالقضايا الاجتماعية وبالشرائح التي تعيش في المجتمعات المتباينة وتنطوي على ظواهر تستوقفها للمعالجة، فكذلك الأسطورة التي لطالما تمثّلت حياة البشر، وتطوّر حياتهم عبر الأزمنة والعصور، وأبرزت في متونها رغباتهم في الخلود والبقاء ، وكانت متنفّسهم في تفعيل كل ما يؤمنون به عبر طقوسهم التي كانت وبصدق أداء يعكس تجاربهم ونظرتهم الجماعية لمكوّنات العالم الخارجي، فهي انبثاق أصيل عن شعائر أولية لها سلطتها وقوتها التأثيرية في نفوس البشر.

وللتّعبير عن هذه الطّقوس والشعائر لا بدّ من اللّغة والأسطورة والدّين والتاريخ فهي عوامل تحفظ لهذه الشعائر البقاء والتّداول" **ولا يقتصر الأمر في اللغة والأسطورة والفنّ والدين على تحوّل انفعالاتنا إلى سلوك فحس، إنما هي تتحوّل إلى أعمال، وهذه الأعمال لا تتعرّض إلى الاضمحلال، إنها تستمر وتبقى**"[12] ولكنّ القارئ أو الدّارس يتساءل عن مدى صمود هذه النّصوص والرّموز الأسطورية أمام فعل القراءة والزّمن، وهل أنّ استدعاءها يتطلّب استقراء ليحيلها إلى الظاهرة الأصلية التي نتجت عنها؟

ويُحدث حضورها تحويلا ظاهرا وباطنا في النّتاجات الأدبية وذلك لما للفكر الأسطوري من قدرة على التّحكم في الظواهر الخارجية وحتى النفسية وتفسيرها ذلك أن " **الأسطورة تعدّ المغامرة الإبداعية الأولى للمخيلة البشرية، وما لبثت أن ابتكرت مغامرات جديدة عبّر كلّ منها عن الشرط التاريخي بعصره من جهة، وعن محاولات الإنسان الدّؤوبة لتملّك واقعه تملّكا معرفيا وجماليا**" [13] وقد زخرت الملاحم الإغريقية القديمة، وحتى الشّرقية بالرّموز الأسطورية ونسجت على أساسها لتروي لنا بطولات الآلهة وأشباه الآلهة.

وبما أنّ غالبها كتبت شعرا استطاع هذا الشّق الأدبي أن يؤثّث لكل الظواهر العريقة داخل بنائه الفنّي وصوره الشّعرية، أكثر من القصة القصيرة التي تظهرها موروثا إنسانيا يحاول ملامسة الواقع رغم منافاته له، وهذا أبرز هدف جماليّ للتّداخل النّصي بين الأسطورة والمتخيّل السّردي داخل القصة القصيرة الجزائرية، حتى صارت منهجا يشتغل به

بعض النقّاد أمثال"حنّا عبود" وغيره، لما اتّكؤوا النّظام الأدبي لاستظهار العجائبي الذي شكّل المادّة الخام للأسطورة بمختلف مرجعياتها المعرفية، والثّقافية ليس الهدف منها ذكر العادات القبلية فقط للأمم السّابقة؛ وإنما إثراء النّص الحاضر جماليا ومعرفيا " **فمثّلت الأساطير بذلك زادا جماليا للكثير من الإبداع العربي، وتمّ استلهامها بأشكال ورؤى مختلفة وفي معظم الأجناس الأدبية**"(14).

لذلك ركّز كتّاب القصّة القصيرة الجزائرية على الغرْف من الأساطير القديمة اليونانية والبابليّة والفرعونية وغيرها، للكشف عن رؤية الإنسان المعاصر بما يتلاءم مع قناعاته، ذلك أنّ المتخيل الأسطوري يتقاطع كثيرا مع المتخيّل الأدبي السّردي بخاصة ومن بينها هذه المجموعات القصصية التي استوحت من علم الميثولوجيا الكثير من المعاني السامية والمصطلحات الكثيفة كثافة الحكايات الخارقة التي تحتويها وتحيل إليها.

وقد عادت القصص المختارة للدّراسة إلى موادّ أسطورية صرّحت بها الكتب التّاريخية والحضارية القديمة وحتى أمّهات الكتب التي كانت سجّلا حافلا بهذه الحكايات، وتعجّ بغرائبية السّحر والانعتاق من الواقع الجافّ بفعل اللاّمعقول والمبالغات كحكايات " **ألف ليلة وليلة** " و"**كليلة ودمنة** "غيرها.

ثانيا / استدعاء الشّخصية الأسطورية:

1- جنّية البحر في "جنّية البحر" لجميلة زنير

1-1 جنية البحر:

كثيرا ما تنقاد شخصيات هذه المجموعة القصصية إلى اختيار مسلك الموت، ولكن بعيدا عن إطفاء حماسة الحياة، كما استندت إلى الغرابة والأساطير حتى تفسّر ملابسات الواقع وتأزّمات النّفس المتردّدة بين مدّ الحقيقة وجزر الكذب كقصة جنّية البحر، التي تحكي عن متاهة الحوّات الذي أضحى أسير جنّية البحر، التي تسكن البحر الذي يعتبره عالمه وكوكبه الخاصّ فيزوره لكي السّمك وكذا السّعادة الأبدية " **فهو يستنجد بصمت الشّارع النّائم، فتروح خطاه تلتهم المسافات..لا يعبر ممرّ الخطر إلا حين يصل قبوه في الميناء..منفاه الجميل المخدّد بأطياف العزلة والمفتون بضجيج البحر، عندها يجد نفسه طفلا متوجا، والزمن حزمة أقمار بيده يلعب به كما يحلو له** "(15) وقد زاده الاغتراب الوجودي نفورا وانسلاخا من مجتمعه، وإصرارا على الانتماء إلى عالم الجنّية التي تملّكت روحه وجسده واحتوت أنفاسه:

"فمنذ سكنته جنّية البحر نذر سنوات عمره لها، امرأة من أساطير أرضعته النّسيان، ورسمت على زنده وشم الولاء وقالت:
اذهب أيّها البحار حيثما شئت فعلى صدري مرساك
لك أوّل الروح، ولي الفتوحات تبدأ من أوّل البرق
لك أصوات اللغات ولي همسات المرايا تبدأ رحلتها من جسدي"[16]

والحاجة إلى هذا الرّمز الأسطوري الذي تعدّدت تسمياته حسب الرّوايات والترجمات (عروس البحر/ ابنة الماء، ابنة جنّية الماء، أميرة البحر، أميرة الليل) جاءت لإبراز شدّة اغتراب الحوّات ومدى التصاقه بالبحر والماء، فلم ينس همومه مع امرأة عادية قد تبادله الحبّ والانطواء نفسه، بل لجأ إلى كائن غريب لا يراه إلاّ هو يجمع بين صفات البشر والأسماك، فكانت الأشدّ سحرا وقدرة على تقمّص كل حركاته وسكناته، وقد حضرت حكايات حورية البحر في الأساطير الشرقية القديمة مع الآلهة" **أتارجاتيس**" التي قتلت أحد البشر ثم عاقبت نفسها، أن ألقت بنفسها في البحيرة.

وقد كانت الحوريات "**يعشن في البحر الأبيض المتوسّط، في قصر يتلألأ بالأنوار...وكنّ يظهرن أحيانا على سطح الماء، راكبات سمادل الماء أو الخيول البحرية وكن، نصف نساء ونصف أسماك، وكانت بعضهن شهيرات**" [17] كما ذكرت حكاية الجنية في التّراث الأدبي القديم وذلك في حكايات "ألف ليلة وليلة" في قصة "**جلنار بنت البحر**" وكذا "**هارون الرشيد الجنّ**" قصص حافلة بالأبعاد الأسطورية التي تتوسّل عالم السّحر والخوارق والمغامرة لسرد أحداثها.

وعند عودة الحوّات إلى منزل عائلته لا يرى فيه إلا الخلاء والعراء الموحش، وجلّ الملامح المكتومة، كما تمنّى لو أن اليابسة بحر حتى يتنفّس فيه هو وجنّيته التي تقاسمت معه دمه وروحه وأهواءه" **فهو مأخوذ بتلك التي تقاطعت في دمه وتحوّلت إلى جمرة تتسلّق جسده، إن العالم من حوله رماد، ولا شيء غيرها...رائحتها تستيقظ وردا ولهيبا في ملابسه وأيامه..يحملها في كفّيه شمعة وزبدا ومسافات** "[18]...

وهذا المقطع يبرز شدّة الصّراع القائم بين العامل الواقعي والغيبي في لاوعي الحوّات، الذي يستأنس للجمرة المتسلّقة في ثنايا جسده على أن يعيش الحياة الأسرية البسيطة مع أمه وأخته اللّتان أجزمتا بجنونه إلى حدّ ما، ويبقى حبيس خياله مع الجنية التي لم تصنع له الحاضر الجميل، ولم تحلّق معه إلى المستقبل الوردي كما تفعل الجنّيات السّاحرات بل تؤنسه في وحدته فقط لا غير.

وقد زادت حدّة اغترابه حين انصرف عن زملائه الصّيادين، فلا ينشغل إلا بالجنّية التي يراها في الشّباك وعلى الشّاطئ وداخل البحر، يناجيها ليلا ونهارا، ولا ينير ظلام ليه الحالك غيرها كما لا يبوح لغيرها عن أوجاعه المريرة، ولكن القصّة القصيرة لم تفصح عن مآل هذه العلاقة الغائمة، التي زادها دفن الأسرار في الصّدر ضبابية.

ونلاحظ بأنّ القصة القصيرة قد اختصرت بنسيج سرديّ حزين جدّا كل معاناة البطل وأيّامه وذلك حين افتقده البحّارة، وقرّروا البحث عنه في غرفته، ولما وجدوه كان أثر الصّدمة أقوى من الصّدمة نفسها فقد"**سكنتهم الغرابة لهذا البحّار الذي اختصر أيّامه ومات وحيدا قرب تلك الكلبة التي أبت أن تغادره وجثمت عند رأسه وقد هدّها الحزن والجوع حتى فارقت الحياة أيضا...وتذكروا حينها أنّهم كانوا يسمعون عويلا آدميا لعدّة ليال ينطلق من هذه الغرفة** "[19] كما ترك الرّاوي نهاية هذا المزج بين متخيّل القصة والنّص الأسطوري المتمثّل في شخصية الحورية مفتوحة التّأويل أمام القارئ الذي سيتساءل حول مصير جنّية البحر.

وقد صوّرتها القصّة ملازمة للحوّات حتى في نومه، ولكنّها استبدلتها بالكلبة لترمز إلى الوفاء ولتحيّر القارئ أكثر"**فهل تنتحر الكلاب ؟..أم أنّ جنّية البحر قد تقمّصت صورة هذه الكلبة لتموت معه كما أشاع النّاس؟**"[20] ورغم هذه النّهاية المأساوية والغائمة لأحداث القصّة القصيرة، إلا أنّها استطاعت أن تصوّر الصّراع القائم بين الحوّات المغترب وقدره المحتوم والانهزام أمامه بعد حلّ الانتحار الذي لم يسرد الرّاوي كيفيته، فهو تمرّد على الحياة وعبث أليم معها، واعتزاز متجاوز لها حين رسم الحوّات بنفسه نهايته الأليمة والخاصة به.

وقد توسّلت القصة شخصية أسطورية أضحت رمزا أسطوريا شائعا جدا وأكّدته الحقائق الأسطورية القديمة، ويتمثّل في جنية البحر التي استطاعت أن تستوعب قلق البطل، وتجعل وجوده مرتهنا بوجودها وهذا من أبرز وظائف النّص الأسطوري الذي لطالما "**استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوْقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحدّاه بها التّنظيم الكوني المحكم الذي يتحرّك ضمنه**"[21] وهذا ما حقّقته هذه الشّخصية الأسطورية عبر تخييل تمّ نسجه بأحداث قابلة للتّصديق، ودون أي تحويل أو تحوير في الدّلالة التّاريخية لهذه الشّخصيّة المتمثّلة في التّضحية والوفاء للحبيب، وكذا الجمالية التي جسّدها الخيال والجاذبية لعروس البحر.

2-1 في قصّة "رجل من عالم آخر":

تستمرّ معالجة الظواهر الاجتماعية في مجموعة **"جنّية البحر"** باعتماد الهالة الأسطورية في قصّة **"رجل من عالم آخر"** و بالطّقوس الخرافية التي تسمو بمخيلة الشّخصية الجذع، وبالقارئ إلى آفاق أعمق وأرحب، وبطل هذه القصة القصيرة فتى حزين لفراق أمّه، ولكن بفضل حورية البحر أو جنّية اللّيل أو طيف الليالي كما أسمتها القصّة، استطاع الفتى أن ينسى آلامه وقهر زوجة أبيه له، وقد رسمت الأحداث جوّا ساحرا ينقل الوعي السّردي إلى وهج الأساطير القديمة التي استطاعت أن تحيي أمّه من جديد حينما قرّر الاحتماء بجسد حورية البحر التي رآها في شعلة من الضّياء، أصبح يرى الدنيا بعينها، وهي تسكن تحت جلده فيخرج بذلك عن منفاه عن بيت الظّلم والظلام إلى كوكبه الفردوسي.

واستدعاء هذه الشّخصية الأسطورية ورد لتعكس سياق القصة الاجتماعي/ الواقعيّ، الذي تشهده الأسرة الجزائرية والمتمثّل في قمع زوجة الأب، والعنف الرّمزي والجسدي الذي تمارسه على أبناء زوجها، ولكنّ الفتى اختار مسارا جديدا لحياته فمن " **يوم زفّ لحورية الأساطير قلّصت جميع الأزمنة من عمره، وشكّلت جسده على هواها، وسوّته بأناملها وأهدابها رجلا من نخيل لا يمتد الشّيب له ولا تغزو التّجاعيد وجهه"** [22] وقد تكرّرت عبارات عديدة للتأكيد على الحياة الجديدة التي صار ينعم بها الفتى، وكيف أنّ حورية البحر قد مسحت اليأس والحزن عن حياته فكان لحضورها دور في الانتقال من الواقع المؤرق إلى الخيال المريح.

وقد جعلت القصّة من حورية البحر أداة تعبيرية فنّية وخارقة لتخرج نمطية الأحداث الاجتماعية من سوداويتها، كما ارتقت بالمسرود إلى عالم نوراني ملؤه الألوان البديعة والأحلام الوردية اللّامنتهية، أنكر معه البطل الصّمت الكئيب، حين زرع الحيرة في نفوس المحيطين به الذين اعتقدوا بأنها " **أسكنته قبّة فضّية تكلّلها رياحين تضجّ بالمسك والأسرار، وأنها ترفض أن يبوح بأسرارها فتغار منها ذوات الضّفائر والمهمّ: أنّه ارتاح من زوجة أبيه، فلم يعد يشعر بالقهر حين يجتاز عتبة الباب"**[23]

فتوظيف جنية اللّيل أو حورية البحر قد كان مقصودا في هذه القصّة على عكس القصة السّابقة (جنّية البحر) من المجموعة نفسها، ولكن موطن التّقاطع يتجلّى حين أمسكت شخصيات الخطابين القصصيّين بخيط الخيال والخرافة عبر الشّخصية الأسطورة للهروب من مجابهة الواقع الأليم، حيث يرفق الكاتب عالمه القصصي برموز أسطورية تخرج بنصّه الأدبي عبر هذا التّداخل النّصي الذي يعتمد الاستلهام سواء على مستوى الشّخصيات أو الموضوعات؛ ليحلّل حالات نفسية وأخرى اجتماعية، لا لتعمية القارئ أو تضليله عبر هذا المنحى الكتابي المحفوف بالمبالغة؛ وإنّما لتوسيع الرّؤية وفق

النّظرة الإنسانية الملائمة للموضوع المعالج، بأسلوب فنّي رامز وموغل في أعماق النّفس البشرية المتسائلة دوما عن مصيرها المبهم.

خاتمة:

يمكن القول بأن اللّجوء إلى المادة الأسطورية لاستبعاد الفكر العقلاني الرّتيب، أو التّحليل الموضوعي للظواهر الاجتماعية، أو مظاهر الفساد وإنّما لتقديم القوى الخفية والغيبية كأساس متين لقهر القوى الواقعيّة القاهرة للإنسان في الواقع الذي لا يمكنه معالجة معضلات الحياة كلّها، فتوسّل الكاتب به وبلغة الأسطورة وشخوصها وأزمنتها وأمكنتها، حتى تهيّء الأرضية للبطولة الخارقة المغيّرة لمجريات الواقع، سواء بشكل افتراضي غير مرجعيّ، أو بالعودة إلى متون الأساطير القديمة المستلة من تاريخ الميثولوجيا وإعادة إنتاجها ببناء سردي تأمّلي بديع، كثير الإيحاء قابل لتعدّد الدّلالات وانفتاح التأويل.

وحتى بالنسبة للشخصيات الأسطورية التي تمّ التّطرق إليها بالتحليل سابقا، يمكن اعتبارها رموزا دالّة على نفسها وعلى غيرها، فتمثّلت دلالتها القديمة، وقدّمتها في إطار رؤية معاصرة، تسعى إلى تشكيل رؤية جمالية حافلة بالإيحاءات التي ستكون بابا لزيادة التأويل رغم بعض من الغموض العائد إلى ثقافة المتلقّي الذي يتعامل مع النصّ الأدبي المستلهم من الأسطورة وليس مع الفكر الأسطوري، فيتشكّل النّص القصصيّ ويأخذ من هذا الفكر لغته الأسطورية ليدمجها مع اللغة السّردية، ويمرّر أبعادا إنسانية تمسّ البشرية جمعاء، دون أن يشعر القارئ بالحشد المخلّ، أو الحشو المشوّه لجمالية النّص الحاضر.

فالنّص الأسطوري نسيج متجدّد ينبني على طاقات خارقة، تستلزم الانفلات في بعض المحطّات السردية من قيد الزّمان والمكان، والتحرّك في دائرة أوسع تزيد من القيم الدّلالية والفنّية وتكسب القصة القصيرة بناءً فنّيا يرقى بعالمي الكتابة والقراءة، ويحافظ على اللّغة القديمة بطقوسها وطلاسمها، كما يأتي بمزيج جديد قوامه الأرقام والألفاظ والتّراكيب المتواشجة في مبانيها ومعانيها مع التّراث الأسطوري القديم، والمعبّرة عن الكينونة الإنسانية حين تغدو رموزا مشبعة بالمعاني الثّرية الأصيلة، ومصاقبة للراهن المرهق بالآفات الاجتماعية لما تحمله من معانٍ إنسانية سامية تهذب النفس وتزيدها تحضّرا ورقيا.

الإحالات والهوامش:

1- سيد القمني، الأسطورة والتراث، الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ط3، 1999، ص25.
2- محمّد عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1993، ص20.
3- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دط، 1997، ص55.
4- قسم الدّراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري ، كيوان للطباعة والنّشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1 ، 2009، 32.
5- رولان بارت، أسطوريات، أساطير الحياة اليومية، تر: قاسم المقداد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2012، ص249.
6- دانييل هنري باجو، الأدب العام المقارن، تر: غسّان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998، ص148.
7- المرجع نفسه، ص 146.
8- سعيد سلام، التّناص التراثي، الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص354.
9- رولان بارت، أسطوريات، مرجع سابق، ص238.
10- محمّد علي اليوسفي، هل نحن خرافة أمام معجزة العقل، مجلة حوار العرب، مؤسسة الفكر العربي، ع9، بيروت، لبنان، 2005، ص 48.
11- دانييل هنري باجو، الأدب العام المقارن ، مرجع سابق ، ص150.+
12- ارنست كاسيرر، الدّولة والأسطورة، تر: أحمد حمدي محمود، مراجعة: أحمد خاكي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، 1975، ص71.
13- نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص15.
14- المرجع نفسه، ص 115.
15- جميلة زنير، الأعمال الأدبية، دار المدار الثقافية للطّباعة والنّشر والتوزيع، ط1 ، 2013 ، ص 534.
16- المصدر نفسه، ص536.
17- برنار كلافيل، أساطير البحر، تر: خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة، مصر، ط1 ، 2007، ص120.
18- جميلة زنير، جنّية البحر، مصدر سابق، ص 538.
19- جميلة زنير، جنّية البحر، مصدر سابق ، ص 539.
20- المصدر نفسه، ص 540.
21- حسن علي المخلف، التراث والسّرد، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، ط1، 2010، ص 233.
22- جميلة زنير، جنية البحر، مصدر سابق، ص549.
23- المصدر نفسه ، 552.

قائمة المصادر والمراجع:

أوّلا/ المصادر:

1- جميلة زنير، الأعمال الأدبية، دار المدار الثقافية للطّباعة والنّشر والتوزيع، ط1 ، 2013.

ثانيا / المراجع:

1- ارنست كاسيرر، الدّولة والأسطورة، تر: أحمد حمدي محمود، مراجعة: أحمد خاكي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، 1975.
2- برنار كلافيل، أساطير البحر، تر: خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة، مصر، ط1 ، 2007.
3- حسن علي المخلف، التراث والسّرد، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، ط1 ، 2010.
4- دانييل هنري باجو، الأدب العام المقارن، تر: غسّان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998.
5- رولان بارت، أسطوريات، أساطير الحياة اليومية، تر: قاسم المقداد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2012.
6- سعيد سلام، التّناص التراثي، الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010.
7- سيد القمني، الأسطورة والتراث الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ط3، 1999.
8- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دط، 1997.
9- قسم الدّراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري ، كيوان للطباعة والنّشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1 ، 2009.
10- محمّد عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1993.
11- محمّد علي اليوسفي، هل نحن خرافة أمام معجزة العقل، مجلة حوار العرب، مؤسسة الفكر العربي، ع9، بيروت، لبنان، 2005.
12- نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 2001.